﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 11 - 16]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإرشـــادات القرآنيّة الفريدةُ تـذكـرةٌ ربـانـيَّـةٌ عَظيمة

لمّا ذكرَ اللّه ﷻ حادثَ ابنِ أمِّ مَكتوم ﷺ، وعِتابَهُ على رسولِهِ فيما كانَ منهُ معهُ؛ أردفَ ذلك ببيانِ أنَّ الهدايةَ الَّتي يسوقُها اللّه سبحانه إلى البشرِ على ألسنةِ رسولِهِ ليستْ من الأمورِ التي يحتالُ لتقريرها في النفوس، وتثبيتِها في القلوب، وإنَّما هي تذكرةٌ يُقصَدُ بها تنبيهُ الغافل إلى ما جُبِلَ عليه الخلقُ من معرفةِ توحيدِهِ، فمَن أعرضَ عن ذلك فإنَّه معاندٌ يقاومُ ما يدعوهُ إليه حسُّه، وتنازعُه إليه نفسُهُ، فما عليكَ إلّا أن تبلِّغَ ما عرفتَ عن ربِّك لتذكِّرَ به الناس، وتنبه الغافل[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَفَرَةٖ﴾: السّفرُ: (سفر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانكشافِ والجَلاء، من ذلك السَّفَر، سُمّي بذلك؛ لأنَّ الناسَ يَنكشِفونَ عن أماكنِهم. والسَّفْرُ المُسافرونَ[2]، وسفَر الرجلُ سفْرًا من بابِ (ضربَ)، فهو سافِرٌ، والجمع سَفْرٌ، مثلُ صاحِب وصَحْب. وأسفرَ الصُّبح إسفاراً: أضاءَ، وأسفرَ الوجهُ من ذلك إذا علاهُ جمالٌ[3]، والسِّفْرُ: الكتابُ الّذي يُسفِرُ عن الحَقائق. والسَّفيرُ: الرسولُ بينَ القوم يَكشِفُ ويُزيلُ ما بينَهُم من الوَحشة؛ فالرّسولُ والملائكةُ والكتبُ مُشترِكةٌ في كونِها سافرةً عن القومِ ما استبهَمَ عليهم[4]. والسَّفَرة

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 115.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سفر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (سفر).
(4) الراغب، المفردات: (سفر).

هم المَبعوثونَ من جانبِ اللّه تعالى وبأيديهم كتبٌ وصحفٌ سَماويّة، يبلّغونها إلى النّاس، والتعبيرُ بالسَّفرة دونَ (النبيّ والرّسول) إشارةٌ إلى أنّهم قد بُعثوا خارجينَ من مَقامٍ فوقَ عالمِ المادَّة، وليسوا من أهلِ الدُّنيا المَحجوبين[1]، وهو المرادُ بهِ في الآية.

2) ﴿بَرَرَةٍ﴾ للبرِّ أربعةُ أصول: الصِّدقُ وحكايةُ صوتٍ، وخلافُ البحرِ ونبتٌ؛ فأمّا الصِّدق فقولُهم: صدقَ فلانٌ وبَرَّ، وبَرَّتْ يمينُهُ: صدقَتْ[2]، والبِرُّ الخيرُ والفَضلُ، وبرَّ الرجلُ يَبُرُّ بَرًّا وزانُ عَلِمَ، فهو بَرٌّ وبارٌّ أيضاً أي صادقٌ أوْ تقيٌّ، وهو خلافُ الفاجِر، وجمعُ الأوّلِ: أبرارٌ، وجمعُ الثاني بَرَرةٌ مثلُ كافرٍ وكفَرةٌ[3]، فهو حُسْنُ العَمَلِ في مُقابلِ الغَير. والمرادُ به في الآيةِ: صادقونَ وأتقياء ومُطيعونَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعظيمُ شأنِ القُرآن يُفضي إلى الالتزامِ بالأحكام

المَعنى: أنّ هَذِهِ السّورَةُ، أوِ الوَصيَّةُ بالمُساواةِ بَيْنَ النّاسِ في إبْلاغِ العِلْمِ مِنْ شَريفِهِمْ ووَضيعِهِمْ تَذْكِرَةٌ؛ فمَنْ شاءَ ذَكَرَ اللّه في جَميعِ أُمورِهِ، وهَذِهِ السّورَةُ أوِ العِظَةُ بَلْ جَميعُ القُرآنِ في صُحُفٍ مُعَظَّمَةٍ مُوَقَّرَةٍ عاليَةِ القَدْرِ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الدَّنَسِ والزِّيادَةِ والنَّقْصِ، بأيْدي المَلائِكَةِ، أوْ أصْحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أوِ القُرّاءِ، خُلُقُهم كَريمٌ حَسَنٌ شَريفٌ، وأخْلاقُهُمْ وأفْعالُهُمْ بارَّةٌ طاهِرَةٌ كامِلَةٌ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الفصلِ في جُملةِ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا﴾:

اللّومُ والعِتابُ يُنشِئُ سُؤالاً في الخِطاب

فصلَ النظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عمّا قبلها؛ إمّا لكونِها واقعةً ممّا قبلَها موقعَ الجوابِ عن السُّؤال؛ فتكونُ مُستأنَفَةً

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 5/ 143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برّ).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (برّ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 321.

استئنافاً بيانيًّا؛ إذِ العتابُ المتقدِّمُ عن التصرُّفِ معَ المستغني وغيرِ المستغني دلّ على إنكارٍ ضمنيٍّ، فأنشأ سُؤالاً مفادُهُ: هل هذا العملُ المُعاتَبُ عليه والمُنكَر فعلُهُ باطلٌ؟ فأجابَ بالإنكارِ والإبطالِ لما صدرَ منه ﷺ من استئثارِ الدَّعوة بالصَّناديد والزَّجر لهُ عن المعاودةِ عليه، قال ابنُ عطيّة: "كَلّا يا محمد، أي ليسَ الأمرُ في حقِّه كما فعلتَ؛ إنَّ هذه السّورة والقراءةَ الّتي كنت فيها مع ذلك الكافر تَذْكِرَةٌ لجميع العالَم لا يُؤثَرُ فيها أحدٌ دونَ أحدٍ"(1). والغرضُ من الاستئناف البيانيِّ التعليمُ والإرشادُ لما يَنبغي أنْ يفعلَه النبيُّ ﷺ والأوْلى لَهُ، وإمّا أنْ تكونَ تَأْكيدًا لِمضمونِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أيْ لا تظنُّ أنَّك مسؤولٌ عَنْ مُكابَرَتِهِ وعِنادِهِ، فقَدْ بَلَّغْتَ ما أُمِرْتَ بتَبْليغِه"(2). والغرضُ حينئذٍ من التأكيد نفيُ اللّوم وتحميلِ المسؤوليّةِ للنبي ﷺ بسببِ عدمِ الاهتداءِ. وأجازَ ابنُ عاشور أنْ تكونَ مستأنفةً استئنافاً ابتدائيًّا؛ بناءً على أنَّ الإبطال والإنكارَ والرّدع ليس مُتوجِّهاً إلى ما عوتِبَ به النبيُّ ﷺ، فقال: "وَيَجوزُ عِنْدي أنْ يَكونَ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا موَجَّهًا إلَى مَنْ كانَ النَّبيءُ ﷺ يَدْعوهُ قُبَيْلَ نُزولِ السّورَةِ، فتَكونُ ﴿كَلَّآ﴾ إبْطالًا لِما نَعَتوا بِهِ القُرْآنَ مِنْ أنَّهُ أساطيرُ الأوَّلينَ أوْ نَحْوُ ذَلِكَ"(3).

مَعنى ﴿كَلَّآ﴾ والغرضُ منها:

عبَّر النظمُ الكريم بالحرفِ ﴿كَلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، وهو: "حَرْفُ رَدْعٍ وإبْطالٍ لِشَيْءٍ يَسْبِقُهُ غالِبًا في الكَلامِ يَقْتَضي رَدْعَ المَنْسوبِ إلَيْهِ وزجره وإبْطالَ ما نُسِبَ إلَيْهِ وإنكاره"(4)، وهو هنا توجيهٌ للنبيِّ ﷺ ألّا ينصرف عن ابنِ أمِّ مَكتوم رضي الله عنه، والإبطالُ لما صدرَ منه معَ المؤمنِ وغيرِ المُؤمن.

الـــرّدعُ بـعـدَ الـعـتـاب عليهِ زجـــرٌ عـــنِ استدامتِهِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 114.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11.

كما يَحْتَمِلُ أنّه: "إبْطالٌ لِما جَرَى في الكَلامِ السّابِقِ ولَوْ بالمَفْهومِ كَما في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، ولَوْ بالتَّعْريضِ أيْضًا كَما في قَوْلِهِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[1]، أي إبطالُ درايتِهِ ﷺ أوْ صحّةِ عبوسِهِ وتولّيه، فيدلُّ الردعُ والإبطال على أنَّ الأوْلى خلافُ ذلك المَردوعِ عنه والمنكَر بدلالةِ المَنطوق. وعلَّق القونويُّ على كلامِ البيضاوي: "ردعٌ عنِ المُعاتَبِ عليهِ أوْ عنْ مُعاودةِ مثلِهِ"[2] بالقول: "هذا إذا كانَ نزولُ الآية في المنعِ، أوْ عن مُعاودةِ مثلِهِ إذا كانَ بعدَ انقضائِهِ؛ فعلَى الأوَّل: ردعٌ عنِ الدَّوام عَلَى المُعاتَبِ عليه؛ فلا إشكالَ بأنَّ الرّدعَ – أي المنعَ – كَيْفَ يكونُ عَلَى ما وُجِدَ"[3]؛ إذ الموجودُ من الفعل لا يُمنَعُ منه؛ لأنَّه وقعَ وتحقَّق، ولذا يُحمَلُ على الدَّوام عليه والاستمرارِ على فعله، فيتوجَّه إليه الرّدعُ حينئذٍ، والغرضُ منَ الزّجر والرّدع الإرشادُ والنّصحُ والتعليمُ لما يَنبغي أنْ يكونَ عليه الدّاعيةُ إلى اللّه تعالى.

قال بعضُهُم: "أُتي بها؛ للمبالغةِ في إرشادِهِ ﷺ إلى عدمِ العَودة إلى ما عوتِبَ عليه من الاهتمامِ بمَنِ استغنى عمّا دعوتَهُ إليه من الإيمانِ والطّاعة، وما يوجبُها من القرآن الكريم، والإعراضِ عمَّن جاءَك مُستهديًا ومُسترشِدًا، أي: لا تعُدْ إلى مثلِ ما وقعَ منك"[4].

دلالةُ (إنَّ) والغرضُ منها:

في كتاب الله الكفاية لمن أراد الهداية

أكَّد النظمُ الكريم الجملةَ الواردةَ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ بحرفِ التوكيد (إنَّ)؛ للدّلالة على إثباتِ حُكمِ التذكير لتلك الآيات، من دونِ تكلُّفِ التصدّي والإقبالِ على المُستغني، إذ هي التذكيرُ بعينه، فلا ينفَعُ تصدٍّ وتكلّفٌ، ولا يضرُّ تولٍّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 114.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 91.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31، 125.

وانصرافٌ؛ فالتوكيدُ لها إثباتٌ لدلالةِ الإبطالِ المتقدِّم مع الشّفقة بحالِ النبيِّ ﷺ الَّذي كان يحرصُ بالإقبالِ والتصدّي على هدايةِ مَنِ استغنى.

نكتةُ الفصلِ في ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾:

التعليلُ والبيان كاشِفانِ عن وجوبِ مُتابعةِ القُرآن

فصلَ النظمُ الكريم الجملةَ الواقعةَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عمّا قبلَها من الرّدع: إمّا للدِّلالة على الاستئنافِ البيانيِّ، كما رأى ابنُ عاشور بقولِهِ: "لِأنَّ ما تَقَدَّمَ مِنَ العِتابِ ثُمَّ ما عَقِبَهُ مِنَ الإبْطالِ يُثيرُ في خاطِرِ الرَّسولِ ﷺ الحَيْرَةَ في: كَيْفَ يَكونُ العَمَلُ في دَعْوَةِ صَناديدِ قُرَيْشٍ إذا لَمْ يَتَفَرَّغْ لَهُمْ؛ لِئَلّا يَنْفِروا عَنِ التَّدَبُّرِ في القُرْآنِ؟ أوْ يُثيرُ في نَفْسِهِ مَخافَةَ أنْ يَكونَ قَصَّرَ في شَيْءٍ مِنْ واجِبِ التَّبْليغِ"[1]، "والغالِبُ في اسْتِعْمالِ ﴿كَلَّآ﴾ أنْ تُعَقَّبَ بكَلامٍ يُبَيِّنُ ما أجْمَلَتْهُ مِنَ الرَّدْعِ والإبْطالِ"[2]، وإمّا للدّلالة على التعليلِ للرّدع بـ﴿كَلَّآ﴾ كما رأى الهرريُّ بقوله: "وهذه الجملةُ المُؤَكِّدة تعليلٌ للرّدع بـ﴿كَلَّآ﴾ عمّا ذكر، ببيانِ علوِّ رتبةِ القرآن العظيم الَّذي استغنى عنه مَن تصدَّى ﷺ لهُ، فالجملةُ جيءَ بها للترغيبِ في القرآن، والحثِّ على حفظِهِ والاتّعاظِ به"[3].

مَرجعُ ضَميرِ الغَيبةِ المُؤنّث ﴿إِنَّهَا﴾:

كلُّ آيِ القُرآن عِظَة وكلُّ جزءٍ منهُ تذكرة

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ مرجعِ ضميرِ الغَيبةِ المؤنَّث في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ لأنَّه لم يتقدّمْ له مَرجِعٌ صريحٌ أوّلاً، وللتدافُعِ الظّاهريِّ مع الضّمير الغائبِ المذكَّر في قولِهِ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وذلك على أقوالٍ متعدِّدة، وهي:

الأول: الضّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائِدٌ إلَى (الدَّعْوَةِ) الَّتي تَضَمَّنَها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786.

قَوْلُهُ: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾"[1]؛ إذ التصدّي يكونُ بالدَّعوة والمَوعظة، فيتطابقُ الضّميرُ المؤنَّثُ معَ مَرجِعِهِ المُنتزَعِ من الكلام في التأنيثِ - وهو الدعوة - .

الثاني: الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى: "هَذِهِ المَوْعِظَةَ؛ بأنّها تَذْكِرَةٌ لَكَ وتَنْبيهٌ لِما غَفَلْتَ عَنْهُ ولَيْسَتْ مَلامًا، وإنَّما يُعاتِبُ الحَبيبُ حَبيبَهُ"[2]، ويلزمُ منهُ أيضاً تخصيصُ هذه الآياتِ المعدوداتِ التي جرى فيها العتابُ بأنَّها في الصُّحُف المكرَّمة، وفيه بعدٌ واضحٌ كما تقدّم، ولذا أوردَها بصيغةِ القيلِ ابنُ عطيّة، واستخرجَ منها معنىً لطيفاً، عبَّر عنهُ بقوله: "وقيلَ المعنى إنَّ هذه المَعتبةَ تذكرةٌ لك يا محمد؛ ففي هذا التأويلِ إجلالٌ لمحمَّدٍ ﷺ وتأنيسٌ لهُ"[3].

الثالث: الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى السّورة، والمعنى: "هذه السّورة والقراءةِ الّتي كنتَ فيها مع ذلك الكافرِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ لجميعِ العالَمِ لا يُؤثَرُ فيها أحدٌ دونَ أحدٍ"[4]، "وَقالَ الكَلْبيُّ: يَعْني هَذِهِ السّورَةَ وهوَ قَوْلُ الأخْفَشِ"[5]، وفي ذلك أيضاً شيءٌ من البُعد؛ إذ فيه تخصيصٌ لسورةٍ معيّنة بالذِّكر، وعدم تناسُبٍ مع التذكيرِ في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ إلا بارتكابِ الاستخدامِ فيه، أوْ عودِهِ إلى ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بمعنى: الذّكر والوَعْظ، والقرآنُ مذكّر وواعظٌ، فعادَ الضّميرُ إلى مدلولِ (التّذكرة).

الرابع: الضّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى: "الآياتِ الّتي قَرَأها النَّبيءُ ﷺ عَلَيْهِمْ في ذَلِكَ المَجْلِسِ، ثُمَّ أُعيدَ عَلَيْها الضَّميرُ بالتَّذْكيرِ؛ لِلتَّنْبيهِ عَلَى أنَّ المُرادَ آياتُ القُرْآنِ، ويُؤَيِّدُ هَذا الوَجْهَ قَوْلُهُ تَعالَى عَقِبَهُ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ بالآياتِ، حَيْثُ ساقَ لَهُمْ أدِلَّةَ إثْباتِ البَعْثِ، فكانَ تَأْنيثُ الضَّميرِ نُكْتَةً خُصوصيَّةً لِتَحْميلِ الكَلامِ هَذِهِ المَعاني"[6]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ قولَه ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ على الاستئنافِ الابتدائيّ، وأنَّ الرّدعَ والإبطالَ متوجّهانِ للكُفّار وتكذيبِهم بآياتِ البعثِ خاصةً، وفيه بعدٌ؛ لما فيه من التخصيصِ بآياتِ البعثِ بلا مُخصِّص.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.

الخامس: الضّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى: "الهداية المودعةِ في سائرِ الكتبِ السّماوية، وأجلُّها القرآنُ، جعلَها اللّه تذكرةً وإرشادًا إلى الطَّريق المُستقيم"[1]، وفيه أنَّ القرآنَ لمّا كان أجلَّها فلا حاجةَ للعودةِ لها إلّا موافقةَ التأنيث للتأنيث.

السادس: الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى (القرآن) بمعنى (آياتِ القرآن) بدليلِ التأنيثِ، وعادَ الضّميرُ على (الآياتِ) الجزئيَّة المَقروءةِ في المَجلِس المخصوصِ الّذي وقعَت المعاتبةُ فيه بعنوانٍ كليٍّ وهو مُطلَقُ الآياتِ المسمَّى (قرآناً)، ويُرشِّحُهُ التذكيرُ للضَّمير في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ العائدُ إلى (القرآنِ) بأكملِه، المتّسقِ حينئذٍ بأنَّه في الصُّحُف المُكرَّمة، قال الرازي: "والدَّليلُ عَلَى أنَّ قَوْلَهُ: إنَّها تَذْكِرَةٌ المُرادُ بِهِ القُرْآنُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾"[2]، وهذا يتّسقُ على تأويلِنا معَ ما قالَه: "مُقاتِلٌ: يَعْني آياتِ القُرْآنِ"، ولا حاجةَ حينئذٍ لما تأوّلَ بِهِ البيضاويّ التأنيثَ بقولِه: "وتأنيثُ الأوّل لتأنيث خبره"[3] على أنَّ (تاءَ) المصدر (تذكرة) ليستْ للتأنيث حقيقةً، بل للتعويضِ عن حذفِ (ياء التفعيل)، وتدلُّ على تأنيثِ اللّفظ دونَ المَعنى، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾ [المدثر: 54]، ولعلَّ إيرادَ ضميرِ الغَيبة مُؤنّثاً دونَ التذكير كما هو الأصلُ في العودِ إلى القُرآن الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ آيةٍ من آياتِه تذكرةٌ في حدِّ ذاتِها، فلم ينسبِ التذكرةَ للمجموعِ بل لجميعِ الأفراد، بخلافِ الحفظِ والوَعْي والفقهِ في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فإنَّه منسوبٌ للمَجموع؛ فالتذكرةُ ذاتيّة للقرآنِ والذّكرُ فقهٌ وإدراكٌ لهُ.

سرُّ الإخبارِ بالمصدَرِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾:

أخبرَ النظمُ الكريم عن القرآنِ العظيمِ بأنَّه: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ في قولِه

المُبالغةُ في التذكير دعوةٌ للاعتبارِ بالنّذير

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 126.

تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾؛ وهو مصدرٌ للفعلِ (ذكَّر) الدالِّ على المُبالغةِ والكثرة، وفي الإخبارِ بالمصدرِ دلالةٌ على أنَّه عينُ التذكيرِ وحقيقتُهُ، فكأنَّ حقيقةَ التذكير تحقّقت فيه، فيكونُ أبلغَ من القولِ: (إنّه مذكِّرٌ).

دلالةُ المجازِ المرسل في ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾:

القرآنُ الكريم تذكيرٌ وبيانُهُ تحذيرٌ

أطلقَ النظمُ الكريم على (القرآن) بأنَّه ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾، للدِّلالة على شدّةِ التذكير وسُرعتِهِ وقوّتِه، وإنّما سُمّيَ القرآنُ تذكرةً؛ لأنَّ قراءةَ آياتِهِ سببٌ للتذكير، فيكونُ مجازًا مرسلًا من تسميةِ الشَّيء باسمِ المُسبَّب. وسرُّ العدولِ في التّسمية أنَّ تصدّيَ النبيِّ ﷺ للمُستغني واهتمامَه به كان رجاء أن يكون له أثر في فهمِهم وتذكُّرِهم بالقرآن، فبيَّنَ له المَولى تعالى أنَّه غيرُ مُحتاجٍ لذلك؛ فسمّاه باسمِ مُسبَّبِه.

دلالةُ (الفاءِ) والغرضُ مِنها:

الآياتُ تذكرةٌ بطبيعتِها، والمستعدُّ للتذكُّر مُنتفِعٌ بها

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة بها على التفريعِ للجملةِ الاعتراضيّة عن مَضمونِ الجُملة السّابقةِ لها، إذِ الآياتُ بطبيعتِها تذكرةٌ، فيتذكّرُ بها مَن أرادَ التذكُّر، قال ابنُ عاشور: "وَ(الفاءُ) لِتَفْرِيعِ مَضْمونِ الجُمْلَةِ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾؛ فإنَّ الجُمْلَةَ المُعْتَرِضَةَ تَقْتَرِنُ بـ(الفاءِ) إذا كانَ مَعْنَى (الفاءِ) قائِمًا، فالفاءُ مِنْ جُمْلَةِ الاعْتِراضِ، أيْ هيَ تَذْكِرَةٌ لَكَ بالأصالَةِ، ويَنْتَفِعُ بها مَنْ شاءَ أنْ يَتَذَكَّرَ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدادِهِ"[1]، بل هي تذكرةٌ في حقيقتِها. وتفرَّع عن ذلك كونُ المتذكّرِ بها الّذي يريدُ ويستعدُّ للتذكُّر والانتفاع؛ لأنَّ تفسيرَه يتّفقُ معَ ما يُروى عنِ الزمخشريِّ من إنكارِ كونِها اعتراضيّةً فيما نقلَه الطّيبيُّ عنهُ بقوله: "قيل للمصنِّف:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 116.

قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ اعتراضٌ؟ قال: لا؛ لأنَّ مِن شرط الاعتراضِ أنْ يكونَ بواوٍ وبدونِ واوٍ، فأمّا بـ(الفاء) فلا، ولكنَّه حثٌّ على الذِّكر والتذكرة، أي: فتذكّرها، وعلى كلِّ مُسلم أيضاً يجبُ ذلك، وقلتُ: أرادَ أنَّه استطرادٌ، وبيانُهُ: أنَّه لمّا خاطبَ النبيَّ بذلك الخطابِ الهائلِ، قيلَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إنَّ تلك المُعاتبةَ مَوعظةٌ للسّامعين؛ فإنَّ النبيَّ بجلالتِهِ إذا عوتب بذلك الخطابِ الفظيعِ لذلك التصدّي والتلهّي، فما بالُ غيره؟ وإذا كان كذلك، فتذكَّرها أيُّها السّامعُ"[1]. وردّ ذلك القونويُّ بأنَّها: "جملةٌ معترضةٌ بينَ المَوْصوفِ والصّفَة، والاعتراضُ كما يكون بـ(الواو) - وهو المَشْهورُ الأكثرُ في الاسْتعْمال - يكونُ بـ(الفاءِ) أيْضًا، كما في قولِه: (واعلَمْ فعِلْمُ المرءِ ينفعُهُ)؛ فإنّ الجُمْلَة اعتراضيّةٌ، كَما صَرَّحَ به أئمّةُ المَعاني، وما نُقِلَ عنِ الزَّمَخْشَريّ من أنَّه استطرادٌ وليس باعتراضٍ؛ فلعلّه لا أصلَ له؛ لأنّه صرَّح في (سورةِ النَّحل): إنَّ قولَه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: 43] اعتراضٌ"[2]. والحاصلُ: أنّها إنْ كانت للاعتراضِ فالغرضُ بيانُ أنَّها في حقيقتِها تذكرةٌ، فيتذكَّر بها من شاءَ ذلك، أي لا بدّ مِن وجودِ القابلِ للانتفاع، وإنْ كانت للاستطرادِ فهي داعيةٌ لوجوبِ التذكُّر بعدَ العِلْم بأنَّ النبيَّ ﷺ مطلوبٌ منه وجوبُ التذكُّرِ والانتفاع.

نكتةُ التعبير بـ(مَن) والغرضُ منهُ:

كـلُّ مَـن أرادَ الانتفاع تحقّقَ لـهُ الـحـفـظُ والاقتناع

عبّرَ النظمُ الكريمُ بـ(مَن) الشرطية في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة بها على العُموم والإبهام؛ والغرضُ منها بيانُ أنَّ كلَّ مَن أرادَ التذكُّرَ والانتفاعَ والفهمَ والوَعيَ بها فإنَّه قادرٌ عليه، فلا يتوقّفُ على شيءٍ ولا يحتاجُ لأمرٍ، سواءٌ كانَ شريفاً صِنديداً أو ضَعيفاً فقيراً.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 296.

(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 91، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 244.

دلالة التعبير بالماضي في الفعل ﴿شَآءَ﴾:

عند وجود المشيئة والإرادة فإنَّ الذكرى واقعةٌ نافِعة

صدّرَ النظمُ الكريم جملةَ الشَّرط بفعلِ (المَشيئة) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على أهميَّة المَشيئة والإرادة والرَّغبة في حصولِ جوابِ الشَّرط، والتعبيرُ عنها بالماضي يدلُّ على تحقُّقِ وحصولِ الفَهم والذِّكر بحصولِ المشيئةِ ووقوعِها الفعليِّ بشكلٍ قاطِع. وفي ذلك: "تَعْريضٌ بأنَّ مَوْعِظَةَ القُرْآنِ نافِعَةٌ لِكُلِّ أحَدٍ تَجَرَّدَ عَنِ العِنادِ والمُكابَرَةِ، فمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بها فلِأنَّهُ لَمْ يَشَأْ أنْ يَتَّعِظَ، وهَذا كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النّازعات: 45]"[1]. وكأنَّ فعلَ (المشيئة) مقابلٌ لفعلِ (الاستغناءِ) في قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾؛ فيكونُ بمثابةِ التعليلِ لعدمِ انتفاعِ المُستغني مع حرصِ النبيِّ ﷺ على نفعِه بالتصدّي له؛ لأنَّه مُستغنٍ لا يشاءُ ولا يرغَبُ في التذكُّرِ والانتفاع، بخلافِ الكفيفِ الَّذي جاءَ يَسعى وهو يَخشى؛ فإنّه مُنتفِعٌ لوجودِ عُنصرِ المشيئةِ والرَّغبة[2].

دلالةُ الفعلِ (ذكرَ) مادّةً وصيغةً:

حصولُ الفَهم والإمداد على قابليَّة المَرءِ والاستعداد

عبّر النظمُ الكريم بالفعلِ الماضي المُجرَّدِ جَواباً للشَّرط (ذكرَ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على تعليقِ حُصولِ الذِّكر على وقوعِ المشيئةِ للمُنتفع، وأنَّ تلك الذكرى أمرٌ مقطوعٌ بحصولِها لا سبيلَ للشكِّ فيها أوْ للارتيابِ بوُقوعِها عندَ وقوعِ شَرطِها، وإنَّما عبّرَ بالمجرَّد دونَ المزيد (تذكّرَ) مع أنَّه الأنسبُ بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على الفرقِ بينَهُما؛ إذ الآياتُ والقرآنُ تذكرةٌ بطبيعته فاختارَ المصدرَ الدالَّ على المبالغةِ والكثرةِ، والقابلُ لها عندَ وجودِ المشيئةِ يحفظُ ويفهمُ ويذكُرُ ويعي مجموعَها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 116.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 126.

تحديدُ مَرجعِ الضَّميرِ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾:

القرآنُ تذكِرة، ونورٌ وضياءٌ وتَبصِرة

اختلفَ المفسّرونَ في مَرجِعِ الضَّمير الغائبِ المذكَّر في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لعدمِ الاتّساقِ في الظّاهرِ بينَ الضّميرِ المذكَّر والمَرجِعِ المؤنَّث على عدّة أقوال، هي:

الأول: الضَّمير عائدٌ للّه تعالى؛ لأنَّه مُنزِّلُ التذكرة؛ فكأنَّ الضّميرَ عائدٌ إلى (التذكرةِ) باعتبارِ مُنزلها، فيكونُ من قبيلِ (الاستخدام)، أوْ: "إنَّ إعادَةَ ضَميرِ الغَيْبَةِ عَلَى اللّه تَعالَى دونَ ذِكْرِ مَعادِهِ في الكَلامِ كَثيرٌ في القُرْآنِ؛ لِأنَّ شُؤونَهُ تَعالَى وأحْكامَهُ نَزَلَ القُرْآنُ لِأجْلِها؛ فهوَ مَلْحوظٌ لِكُلِّ سامِعٍ لِلْقُرْآنِ، أيْ فمَنْ شاءَ ذَكَرَ اللّه وتَوَخَّى مَرْضاتَهُ"[1].

الثاني: الضَّمير عائدٌ للتذكرة، وذَكَّر ضميرَها؛ لأنَّها بمعنى: الذِّكر والوَعظ[2]، أوْ لأنَّها مصدرٌ، والتاءُ فيه للمصدريّة التعويضيَّة لا للتأنيث، أوْ يَعودُ إلَى ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ لِأن ما صدقَها القُرْآنُ الَّذي كانَ النَّبيءُ ﷺ يَعْرِضُهُ عَلَى صَناديدِ قُرَيْشٍ قُبَيْلَ نُزولِ هَذِهِ السّورَةِ، أيْ فمَنْ شاءَ ذَكَرَ القُرْآنَ وعَمِلَ بهِ[3]، فيكونُ من قبيل الاستخدام الرّاجع إلى (التذكرة) باعتبارِ ماصدقِها الواقعيّ، وهي الآياتُ المخصوصةُ الَّتي قالَها في مَجلسِهِ، فالجملةُ جيءَ بها للترغيبِ في القُرآن، والحثِّ على حفظِهِ والاتِّعاظ بهِ[4].

الثالث: الضَّميرُ عائد "للقرآنِ أوِ العتاب المَذْكور"[5]، واستظهرَ القونويُّ الأوّل؛ "لأنّه يفيد أنَّ القُرْآنَ كلَّه تذكرةٌ، وأمّا إذا كانَ للعتابِ فيكون المُراد القُرْآنَ الدالَّ عَلَى العتاب؛ إذ القُرْآن كما يُطلَقُ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(2) ابن عادل، اللباب: 20/ 159.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.

الكلِّ يُطلَقُ عَلَى الجزءِ أيْضًا، فيكون هذا داخلًا في الأوّلِ دُخولًا أوليًّا، وكونُ العتابِ تذكرةً؛ لأنَّه مع عُلوِّ منصبِهِ ﷺ إذا عوتِبَ عَلَى ذلك؛ فما ظنُّكَ بغيرِهِ؟"[1]. والَّذي يترجّح أنّه عائدٌ إلى (القرآنِ) الّذي هو الماصدقُ لـ(تذكرة)، فيكونُ عائداً إلى القرآن بوصفِهِ تذكرةً، والمعنى: فمَن شاءَ ذكرَ القرآنَ وفهمَه وحفِظه واتّعظَ به بوصفِهِ المُلازمِ له من دونِ التصدّي ومزيدِ التهيُّؤِ لتعليمِهِ وتَفهيمِهِ.

نكتةُ تقديمِ جملةِ الاعتراضِ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾:

الاعـتراضُ قبلَ الـوَصـف بـيـانٌ لـلأهـمّ عـنـدَ المُنصِف

قدّمَ النظمُ الكريم الجملةَ الاعتراضيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ على صفةِ (التذكرة): وكانَ الظّاهرُ أنْ يُؤخِّرَ قولَه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عن وصفِ (التذكرة) - وهو قوله ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ -، فقُدِّمَ لشدَّةِ العنايةِ بها"[2]، ولبيانِ أنَّ التذكرةَ بيّنةٌ ظاهرةٌ لمَن أرادَ فهمَها والاتّعاظَ بها قبلَ الإقدامِ على وصفِها؛ لأنَّ وصفَ التذكرة لا يُجدي نفعاً قبلَ بيانِ موقفِ المتذكِّر منها فهْماً واستيعاباً ودراسةً وفِقْها.

دلالةُ الحرفِ ﴿فِى﴾ والغرض منه:

التذكرةُ المَلفوظة نفيسةٌ مَحفوظة

عبَّر النظمُ الكريم بالحرفِ ﴿فِى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ للدِّلالة إمّا على الظرفيَّةِ الحقيقيَّة إنْ كانتِ (الصّحف) بمعنى: الكُتُب السّماوية أوْ الصُّحُفِ المُنْتَسَخَةُ مِنَ اللَّوْحِ، أوِ الأشْياءِ الَّتي كُتِبَ فيها القُرْآنُ مِنْ رُقوقٍ وقَراطيسَ، وأكْتافٍ، ولِخافٍ، وجَريدٍ، ويَكونُ حَرْفُ ﴿فِى﴾ لِلظَّرْفيَّةِ الحَقيقيَّةِ؛ إذ التذكرةُ مكتوبةٌ في الصُّحف، والصُّحفُ ظرفٌ لها محيطٌ إحاطةَ المَكانِ بالمَكين، قال ابنُ عاشور: "وَمَعْنَى كَوْنِ هَذِهِ التَّذْكِرَةِ فِي كُتُبِ الرُّسُلِ السّابِقينَ: أنَّ

(1) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 92.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 296.

أمْثالَ مَعانيها وأُصولِها في كُتُبِهِمْ"[1]. أوْ على الظَّرفية المجازيَّة إنْ كانتِ الصُّحفُ بمعنى الذواتِ القدسيَّة؛ إذ التذكرةُ لا تكونُ فيها بل معَها، والغرضُ من الظرفيّتينِ الحقيقيَّةِ والمجازيَّة بيانُ أنَّ التذكرة نفيسةٌ؛ لأنَّها موضوعةٌ في كتابٍ أوْ معَ ذاتٍ قدسيَّة، وما ذلك إلّا لنفاستِها وصدقِها.

نكتةُ التعبيرِ بالنّعتِ ﴿فِي صُحُفٍ﴾:

تعظيمُ القرآن والآيات لثبوتِهما في الكتُبِ البيِّنات

أوقعَ النظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِي صُحُفٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ موقعَ النّعتِ للتّذكرة[2]، "والمُرادُ مِنْ ذَلِكَ تَعْظيمُ حالِ القُرْآنِ والتَّنْويهُ بذِكْرِهِ، والمَعْنَى أنَّ هَذِهِ التَّذْكِرَةَ مُثْبَتَةٌ في صُحُفٍ"[3] لكرامتِها وجلالتِها. وأجازَ الهرريُّ كونَه صفةً أوْ خبراً ثانياً بقولِهِ: "أخبرَ سُبحانه عن عِظَمِ هذه التذكرة وجلالتِها، فقالَ: ﴿فِي صُحُفٍ﴾؛ فالجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، وهو صفةٌ لـ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إنّها تذكرةٌ كائنةٌ في صُحُف مُنتسخةٍ من اللَّوح، أوْ خبرٌ ثانٍ لـ (إنَّ)"[4]. وعلى كلا المَعنيين فإنَّ التذكرةَ جليلةُ المقدار عظيمةُ الجانب؛ لأنَّها ثابتةٌ في صُحُفٍ عظيمةٍ. بقي أنَّ تنكيرَ ﴿صُحُفٍ﴾ دالٌّ على أنَّها صُحُفٌ عظيمةٌ فخمةٌ يحارُ العقلُ في كُنهِ جَلالِها.

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾:

القلوبُ المُتذكِّرة صُحُفٌ مكرَّمة

نعتَ النظمُ الكريم (الصُّحُف) بأربعةِ نعوتٍ مدحيّة، بدأها بـ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، الدالِّ على وقوعِ الإكرامِ عليها؛ لأنَّ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ اسمُ مفعولٍ دالٌّ على ثبوتِ الإكرام لتلك الصُّحُف، والمُكرِّم لها هو اللّه تعالى لما فيها من العلْم والحِكمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 116.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 296.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(4) ابن عادل، اللباب: 20/ 159، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.

الإلهيَّة، والغرضُ من وصفِها بالكرامة وعدُ مَن انتفَعَ بتلك التذكرةِ الثابتةِ في الصُّحُف المكرَّمة بأنَّه ينالُهُ الكرمُ الإلهيُّ؛ إذ صدرُ الحافظِ لها والعاملِ بها يكونُ كالصُّحُف المكرَّمة المُشرّفة[1].

دلالةُ المجازِ المُرسَل في النُّعوت:

مِـن عـظَـمـةِ الـحـالِّ يعظُمُ المَحَلّ

وصفَ النظمُ الكريم (الصُّحُف) في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ وأرادَ مدحَ المكتوبِ في تلك الصُّحف؛ فيكونُ مجازاً مرسلاً من مدحِ المَحَلِّ وإرادةِ الحالِّ فيه؛ فالعلاقةُ المُجاورة، والغرضُ من التجوُّزِ المُبالغةُ في المديح؛ إذ يتحقَّق مدحُ المجاور والمحلّ بثبوتِ ذلك المدحِ للحالِّ، قال القونوي: "والمُرادُ مدحُ ما كُتبَ فيها؛ إذ الصّحيفةُ ما يكتبُ فيه الشّيءُ، ولكونِهِ حالًّا مُدِحَ محلُّهُ للمُبالَغَةِ فيه"[2].

دلالةُ النّعتِ الثاني ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾:

الرفعُ الحقيقيّ والمَعنويّ دالّانِ عـلـى الـكَـمـالِ القُرآنيّ

نعتَ النظمُ الكريم الصُّحُفَ بنعتٍ ثانٍ وهو ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ إمّا للدِّلالة على الرّفع الحقيقيِّ الحسيِّ؛ لأنَّها نازلةٌ من السَّماء السّابعة، أوْ لأنَّها مرفوعةُ القدرِ والشَّرف، قالَ الرازيُّ: "مَرْفوعَةٌ في السَّماءِ السّابِعَةِ أوْ مَرْفوعَةُ المِقْدارِ"[3]. وعلَّل القونويّ عدمَ ذكر البيضاويِّ للقول بالمعنى الحقيقيِّ وهو رفعة المكان "لأنّه مدحٌ للمكانِ لا للمكينِ، إلّا بمُلاحظة كونِها مرفوعةَ القدر"[4].

دلالةُ النّعتِ الثالث ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾:

شـرَفُ المَـعـاني يُـحـقِّـقُ الـطُّـهـرَ الذاتيّ والغَيريّ

نعتَ النظمُ الكريمُ (الصُّحُف) بنعتٍ ثالثٍ وهو ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، والمرادُ بطُهْرِها شَرَفُها وشرفُ ما

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 92.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 92.

تَدعو إليه من طَهارةٍ قلبيّة وسَلامةٍ عقليّة، فالمَعاني طاهرةٌ في ذاتِها مع طُهْرِ ما تدعو إليه من سُموٍّ وخلقٍ كريمٍ وصفاتٍ رفيعة. قال ابنُ عاشور: "والمُرادُ هُنا: الطَّهارَةُ المَجازيَّةُ، وهيَ الشَّرَفُ"(1)، ورأى الرازيُّ أنَّ وصفَها بالطَّهارة لكونِها: "مُطهّرةً عَنْ أيْدي الشَّياطين، أوِ المُرادُ مُطَهَّرَةٌ بسَبَبِ أنَّها لا يَمَسُّها إلّا المُطَهَّرونَ وهُمُ المَلائِكَةُ"(2)، فيكونُ مَجازاً مُرسَلاً من تسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُخالِطِه.

دلالةُ صوغِ النُّعوتِ الثّلاثةِ اسمَ مَفعول:

الاعتناءُ والتشريف تقديسٌ مُنيف

مدحَ النظمُ الكريم (الصُّحف) بثلاثةِ نعوتٍ مُتوالية على صيغةِ اسمِ المفعول، فقال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الَّذي تولَّى كرامتَها ورِفعتَها وطهارتَها هو اللّه تعالى، فتكونُ كريمةً ورفيعةً وطاهرةً بأتمِّ ما يكون وأعلى ما يُتصوّرُ، والغرضُ من المدح لها بذلك بيانُ أثرِها في المُقبل عليها من كرامةٍ ورفعةِ شأنٍ وطَهارة. وإنَّما أظهرَها النظم بهذا الترتيب؛ لأنَّ مَن كان كريماً فهو مرفوعُ الشَّأن، ومن كان مرفوعاً عالياً فإنّه نقيٌّ مقدَّس. ورأى ابنُ عاشور أنَّ هذه الأوصافَ محمولةٌ على معانٍ مجازيّة: "وَهيَ مَعاني الاعْتِناءِ بها كَما قالَ تَعالَى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾ [النَّمل: 29]، وتَشْريفِها كَما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين: 18]، وقُدْسيَّةِ مَعانيها كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البَقَرَة: 129]"(3).

دلالةُ مَوقِعِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿بِأَيْدِى﴾:

الصُّحفُ في أيدي السَّفرة أرجحُ من المطهَّرة بمَسِّ السَّفَرة

عبّر النظمُ الكريمُ بالجارِّ والمَجرورِ ﴿بِأَيْدِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾؛ للدِّلالة إمّا على النّعت للصُّحُف، والباءُ حينئذٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.

للظرفيَّة، والتقديرُ: (صحفٍ كائنةٍ بأيدي سَفَرة)، أي كتبةٍ يَنتسخونها منَ اللَّوح المحفوظ، قال الهرريّ: "والظّاهرُ أنَّ الجارَّ والمجرورَ صفةٌ لـ ﴿صُحُفٍ﴾؛ أي في صُحفٍ كائنةٍ بأيدي سَفرة، أوْ مكتوبةٍ بأيدي كتبةٍ منَ الملائكة، ومِن هذا وقفَ بعضُهُم على ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ وقفًا لازمًا؛ هربًا من توهُّم تعلُّق (الباءِ) به"[1]، فهي: "صفةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَه، والظرفُ مُسْتَقرّ"[2]، أوْ على أنَّهما مُتعلِّقانِ بـ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، والباءُ حينئذٍ للسّببيّة، والظّرفُ لغوٌ، والتقدير: (مُطهّرة بسببِ أيدي السَّفرةِ من الملائكة) أي الكتبةِ، أوْ مِنَ السُّفراءِ؛ لأنَّهم سفراءُ للخلقِ بالرسالات، "قال القفّال في توجيهه: لمّا لم يمسَّها إلّا الملائكةُ المطَهَّرونَ أُضيفَ التطهيرُ إليها؛ لطَهارةِ مَن يمَسُّها"[3]، وضعّفَهُ القونويّ: "لإيهامِهِ أنَّ كونَها مُطهَّرةً بسَبَبِ مسِّ أيدي سَفَرة"[4].

دلالة التعبير بلفظ (الأيدي) مجموعاً:

كتابةُ أيدي السّفَرة دليلُ كونِها مُكرّمة

عبّر النظمُ الكريم بلفظِ (الأيدي) مَجموعاً في قولِه تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾؛ للدِّلالة على مدحِ الصُّحفِ وتكريمِها بأنَّها في أيدي السَّفرة يَكتبونَها ويَحملونَها، وتخصيصُ (الأيدي) بالذّكر حَمْلاً وكتابةً تنويهاً بشأنِ الصُّحف وإعلاءً لقدرِ المكتوبِ فيها، وجاءَتْ مجموعةً للدِّلالة على التوزيع؛ إذ كلُّ واحدٍ منَ السَّفرة يكتبُ تلك الصّحفَ أوْ يَحملُها تعظيماً لشأنِها.

سرُّ الإضافةِ في ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾:

أيدي السَّفَرة إعلاءٌ للصُّحُف المُطَهَّرة

أضافَ النظمُ الكريم لفظَ (الأيدي) إلى (السَّفَرة) في قولِهِ تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾؛ للدِّلالةِ على تخصيصِ تلك الأيدي؛ إذِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 93.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.
(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 93.

النّكرةُ إنْ أُضيفَتْ إلى نكرةٍ مثلِها تخصَّصتْ بها، والغايةُ من التخصيصِ مدحُ تلك الأيدي بما يُفيدُهُ لفظُ (السّفرة) من دلالةٍ على الإشراقِ والإضاءةِ والانجلاءِ.

دلالةُ الاستعارةِ التصريحيَّة في لفظِ ﴿سَفَرَةٍ﴾:

بتحديدِ المتعلَّق بدقّة ينكشفُ لفظُ السَّفَرة

عبَّر النظمُ الكريم بلفظِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾؛ إمّا للدِّلالة على (الكَتَبة)؛ بناءً على أنَّ ﴿بِأَيْدِى﴾ نعتٌ للصُّحف، فيَكونُ" "المُرادُ بالسَّفَرَةِ جَمْعَ سافِرٍ، أيْ كاتِبٍ، قالَ الزَّجّاجُ: وإنَّما قيلَ لِلْكِتابِ سِفْرٌ (بِكَسْرِ السّينِ) ولِلْكاتِبِ سافِرٌ؛ لِأنَّ مَعْناهُ أنَّهُ يُبَيِّنُ الشَّيْءَ ويوَضِّحُهُ، يُقالُ: أسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا أضاءَ"[1]، فيكونُ لفظُ (السفرة) مُستعاراً استعارةً تصريحيَّة؛ إذ شبّهنا الكتبةَ بالسَّفرة. وأمّا إنْ كانت ﴿بِأَيْدِى﴾ مُتعلِّقةً بـ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ فالمرادُ بالسَّفرة الملائكةُ أوِ الأنبياءُ، قالَ الفرّاء: السّفرةُ هنا الملائكةُ الَّذين يسفِرون بالوَحْي بينَ اللّه تعالى ورُسُلِه مِن السَّفارة، وهو السّعيُ بينَ القومِ"[2]، ويكونُ إطلاقُ لفظِ (السّفرة) على المَلائكةِ والأنبياء على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّة أيضاً، قال القونوي: "فإطلاقُ السُّفراء عَلَى المَلائكَةِ والأنْبياء اسْتعارَةٌ؛ لأنَّهم كالسُّفراء الَّذينَ يُصلحونَ بينَ النّاس"[3]. بقي أنَّه يجوزُ أنْ يرادَ بـ(السَّفرة) كُتّابُ القرآنِ من صَحابة رسول اللّه ﷺ؛ فهم يكتبونَ الوحيَ، فيكونُ فيه كمالُ المدحِ لهُم، فـ: "السَّفَرَةُ الكِرامُ البَرَرَةُ هُمْ أصْحابِ رَسولُ اللّه ﷺ، وقيلَ هُمُ القُرّاءُ"[4]. قال ابنُ عاشور: "وَفي وصْفِهِمْ بـ(السَّفَرَةِ) ثَناءٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأنَّهُمْ يُبَلِّغونَ القُرْآنَ لِلنّاسِ وهُمْ حُفّاظُهُ ووُعاتُهُ، قالَ تَعالَى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 93.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 56.

[49] فهَذا مَعْنَى السَّفَرَةِ، وفيهِ بشارَةٌ بأنَّهُمْ سَيَنْشُرونَ الإسْلامَ في الأُمَمِ، وقَدْ ظَهَرَ مِمّا ذَكَرْنا ما لِكَلِمَةِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ مِنَ الوَقْعِ العَظيمِ المُعْجِزِ في هَذا المَقامِ"[1].

دلالةُ النّعت بـ﴿كِرَامٍ﴾ مجموعاً:

العظمةُ والعطفُ على المُؤمنين خُلُق السَّفرة بالكتابِ المُبين

نعتَ النظمُ الكريمُ (السَّفرة) بلفظِ ﴿كِرَامٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ أولئك السَّفرة سواءٌ كانوا كتّابَ الوَحْي لرسولِ الله ﷺ أوِ الأنبياءَ والرُّسُل أوِ الملائكةَ، مُتّصِفُ كلُّ واحدٍ منهم بأنَّه كريمٌ، وإنّما وُصِفوا بذلك؛ لأنَّ تلك الصُّحُف وما فيها مُكرّمة؛ فمَن يَكتبُها أوْ يكونُ سَفيراً بها فإنَّه كريمٌ كرماً مَعنويّاً يدلُّ على العظمَة والتّعَطُّف. قالَ البيضاويُّ في ﴿كِرَامٍ﴾: "أي أعزّاءٍ عَلَى الله، أوْ مُتعطِّفين عَلَى المُؤْمنينَ يُكلِّمونَهم ويَستغفرونَ لهم"[2]؛ فعلى المعنى الأوّل قالَ القونوي: أي مُعظَّمونَ عندَه، و(على) في (عَلَى الله) بمعنى (عندَ)؛ فأشارَ بهذا التَّفْسير إلَى أنَّه من الكَرامة، بمعنى: التّعظيم والتوقير، لا بمَعنى الإحسانِ، وإنْ كان التوقيرُ نوعًا من الإحسان، وعلى الثاني قالَ: فيكونُ من الكرم ضدَّ اللّؤْم، ويُكلِّمونهم إمّا بالذات إنْ كان المُرادُ الأنْبياءَ أوْ بالواسطةِ إنْ كانَ المُرادُ المَلائكَةَ؛ لكونِهم وسائطَ في الوَحي؛ فإسنادُ التكليمِ إليهم مجازٌ"[3].

دلالةُ النَّعتِ بلفظِ المَصدر ﴿بَرَرَةٍ﴾:

النّعتُ بالمصدريّة مُحقِّقٌ للأبلغيَّة

نعَتَ النظمُ الكريمُ بلفظِ المَصدَرِ ﴿بَرَرَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ للدلالة على المدحِ والتعظيم من شأنِ (السَّفرة) بأنَّهم عينُ الحقيقةِ المصدريَّة، فيكونُ على حدِّ قولنا: (مررتُ برجلٍ عدلٍ)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 94، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.

والتوصيفُ بالمصدَرِ أبلغُ من التوصيفِ بالمشتقِّ؛ لما فيه منَ المُبالغة. قالَ ابنُ عاشور: "والبَرَرَةُ: جَمْعُ بَرٍّ، وهوَ المَوْصوفُ بكَثْرَةِ البُرورِ، و(بَرَرَةً) أَبْلَغُ مِنْ (أبْرارٍ)؛ إذْ هوَ جَمْعُ (بَرٍّ)، و(أبْرارٌ) جَمْعُ (بارٍّ)، وبَرٌّ أبْلَغُ مِنْ بارٍّ؛ كَما أنَّ (عَدْلًا) أبْلَغُ مِنْ (عادِلٍ)؛ فهَذا مِنْ بابِ الوَصْفِ بالمَصْدَرِ مِثْلَ (عَدْلٍ)، والغالِبُ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ أنَّ البَرَرَةَ المَلائِكَةُ والأبْرارَ الآدَميّونَ"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 119.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"